الدرس الثامن

المذكرات الشخصية

شكل عملية توثيق المذكرات الشخصية ونبش الأوراق العائلية التي كتبها الآباء والأجداد خلال العقود الماضية إحدى أهم المصادر التاريخية التي ترسم صورة حقيقة لتفصيلات الحياة اليومية الاجتماعية والاقتصادية والسياسية في منطقة معينة وفترة زمنية محددة بحيث يستطيع القارئ والباحث فهم الواقع الذي كان يعيشه إنسان تلك الفترة من مختلف جوانب الحياة ما يساهم الى حد كبير في فهم الحاضر والتخطيط للمستقبل والاستفادة من تجارب الماضي .

وعلينا في هذا المقام، كباحثين، ان نعي الاختلاف والتباين في المغزى من وراء نشر هذه المذكرات بين شخص وآخر، اذ هناك يكتب من أجل تجميل صورته في عيون الناس أو تخليد اسمه في التاريخ، وهناك من يدوّن مذكراته من أجل الانتقام والطعن في شخص أو نظام معين، والبعض الآخر يرى في كتابة السيرة عملاً تجارياً مربحاً. وهنالك من يكتب المذكرات الا لغرض نشر الحقائق لتستفيد منها الأجيال القادمة وتأخذ عبرة في حياتها.

والمذكرات في جميع الأحوال تكتب بعد أن يكون صاحبها قد تقدم في السن، وهي تكتب من سياسيون، علماء، فنانون، مخترعون، أدباء وما إلى ذلك من شخصيات لها مكانتها ووضعها الاجتماعي والثقافي والسياسي. وحتى تكون ملفتة وذات قيمة يجب أن تتضمن حقائق وأسرارا خاصة بحياة مؤلفها المهنية والشخصية، وبمعنى الكشف عن أسرار حياته الشخصية والتطرق إلى أدق التفاصيل المحرجة التي كان محرما الحديث بها أثناء حياة صاحب المذكرات المهنية.

وإذا عدنا إلى التاريخ فيمكننا القول بان كتابة المذكرات تعود الى القرن الرابع الميلادي حيث ألف القديس سانت أوغستين (354م–430م) كتابه الشهير اعترافات الذي تحدّث فيها عن تأثير الدين في حياته الخاصة ، ومن ثمّ تطوّرت وتبلورت كتابة المذكرات كفن أدبي قائم بذاته مع المفكر الفيلسوف جان جاك روسو ، احد اشهر كتاب عصر العقل الممتد من أواخر القرن السابع عشر إلى أواخر القرن الثامن عشر الميلاديين. حيث ساعدت فلسفة روسو في تشكيل الأحداث السياسية، التي أدت إلى قيام الثورة الفرنسية. وأثرت أعماله في التعليم والأدب والسياسة، وكان لاعترافات جان جاك روسو، التي كُتبت بين 1765– 1770 ونُشرت بين

1781– 1788 تأثير تاريخي مهم لأنها قدمت طرقاً جديدة لفهم النفس وعلاقتها بالآخرين الذين نعيش في وسطهم. شجاعة الكاتب وتصميمه على إعادة تقييم ما يعتبر القيِّم والتافه، الصواب والخطأ، في حياته يؤثر حتى على من يقرأ الكتاب بعد وفاته بمئات السنين. ويعتبر روسو أهمّ مَنْ كتب السيرة الذاتية عبر كتابه الشهير (اعترافات)، وقد استهلّه بجملة صارخة قال فيها: "أنا أفعل شيئاً لم يفعله شخص قبلي ولن يقدر شخص بعدي على تقليده". وبالفعل كان جان جاك روسو أوّل من كتب السيرة الذاتية بمعناها المتعارف عليه اليوم، كما كان كتابه الأكثر جرأة وصراحة منذ لحظة صدوره حتى الآن .

ولم يعد كتابة المذكرات الشخصية حكرا على الأدباء والفلاسفة وإنما تحوّلت بعد ذلك إلى السياسيين والملوك والرؤساء والثوّار ومن ثمّ الفنانين حتى صار نشر (المذكرات) أمراً شائعاً بين كلّ المشاهير في شتّى المجالات. وبات عدد المذكرات التي كتبها المشاهير منذ القدم حتى اليوم لا يُعد ولا يُحصى ،لذا يصعب علينا تحديد أسماء معينة لان اللائحة تطول بعد روسو .

المذكرات الشخصية كمصدر تاريخي

إن المذكرات والسير الذاتية متفاوتة القيمة وتتوقف أهميتها على عوامل عديدة ولا يمكن التعويل عليها كثيراً كمصدر لكتابة التأريخ الا بعد نظرة تحليلية فاحصة، يتم من خلالها الإحاطة الدقيقة بشخصية كاتبها وموقعه ودوره في الأحداث التي يتحدث عنها وبالتالي مدى اطلاعه على تفاصيل تلك الأحداث ومدى التزامه بالموضوعية والحيدة في سرد مذكراته وهى شروط قد لا تتحقق الا نادراً، ذلك لأن المذكرات والسير ذات طابع ذاتي ومن الصعب على أي إنسان ان يتجرد من أهوائه وميوله وآرائه ورؤيته للحياة خلال تدوين تفاصيل الأحداث، التي كان طرفاً فيها. المذكرات الشخصية، ليست توثيقاً غير منحاز لحوادث الماضي ولكنها اعترافات وتبريرات واتهامات وتأملات شخصية وذاتية. ليس ذلك نقصاً ولا مثلمة فيها، بل صفة ملازمة لها والتي تعكس بصمات المؤلف والزمن الذي عاش فيه. صاحب المذكرات يود في المقام الأول ان يظهر او يبرز دوره في الأحداث التي يسردها وعلاقة هذه الشخصية المهمة او تلك بصاحب المذكرات. المصدر الرئيس لصاحب المذكرات هو ذاكرته الشخصية ومن المهم ملاحظة مدى إمكانية الاعتماد عليها ومدى قدرة المؤلف على تقديم المعلومات عن الحدث بدقة، رغم أن التزام الصمت بصدد بعض المعلومات وعدم التطرق إليها لا يدل على ضعف الذاكرة .بل يشير الى وجود شكل ما من أشكال الرقابة الرسمية او الذاتية. وتكتسب المسافة الزمنية الفاصلة بين

وقوع الحدث وبين تأريخ الكتابة عنه اهمية كبيرة وكلما كانت هذه المسافة أكبر كان احتمال التحريف وضياع التفاصيل ونسيان الأسماء أكثر. ومن ناحية أخرى فأن وجود فترة زمنية معقولة يفصل بين تأريخ وقوع الحدث وزمن تسجيله، يسمح بتقييم الماضي بهدوء أكثر والنظر بموضوعية إلى الذات وتمييز المهم عن غير المهم. إحدى الطرق الفعالة لتدقيق تكامل وصدفية المذكرات هي مقارنتها مع المصادر الأخرى التي لها علاقة بالحدث الذي يتحدث عنه المؤلف. ومن الأهمية بمكان، معرفة المصادر التي استقى منها صاحب المذكرات معلوماته حيث انه لا يكتفي في العادة بما يختزنه ذاكرته الذاتية، بل يستعين بمصادر إضافية من اجل أحياء واستعادة مجرى الحدث في ذاكرته وتكامل شرح تلك الأجزاء التي لم يشارك فيها شخصيا وأخيرا لتعزيز آرائه وتبرير مواقفه. المذكرة يمكن أن تشمل الوثائق ومقتطفات من رسائل ويوميات وأخبار منشورة في الدوريات والنشرات. وتكتسب الوثائق الرسمية أهمية بالغة بالنسبة إلى المذكرات الشخصية للساسة والقادة العسكريين. حيث يتم إدراجها أحياناً كملحق للكتاب.

ينظر المؤرخون إلى المذكرات الشخصية كمصادر ثانوية لكتابة التأريخ. ولكن يتعين على من يستخدم المذكرات كمصدر أن يتذكر إن أهميتها ترتبط بالموضوع الذي يعالجه صاحبها. فهي، أي المذكرات، مهمة ومصدر أساسي للإطلاع على السيرة الذاتية لكاتبها وخاصة للتثبت من واقعة أو فعل أو حقيقة تاريخية. ولكنها تكون قاصرة عن رسم صورة شاملة ودقيقة للواقع السياسي–الاجتماعي للفترة التاريخية التي عاش فيها المؤلف أو توثيق الحركات السياسية والاجتماعية او التأريخ الاقتصادي للبلد. في مثل هذه الحالات، ونتيجة ذلك، تحتل المذكرات الشخصية مرتبة ثانوية بالقياس الى التقارير والإحصاءات والوثائق الرسمية .